موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

تجسد الكلمة في محالّ ضرّاته

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثامنة

www.coptology.com

Coptology

ⲥⲁⲛⲱⲩ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

تجسد الكلمة

محاضرات في

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثامنة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٠

www.coptology.org

جدول المحتويات

تقدمة الابن لجسده، ذبيحة المحبة التي قدَّمها الآب والابن والروح القدس على الصليب ٣
التعليم الرسولي وتقسيمات العصر الوسيط ٣
عودة إلى التعليم الرسولي كما شرحه القديس أثناسيوس ٥
استحالة حصار العمل الإلهي في أقنوم واحد بعينه: ٦
تقديم الجسد هو عمل الثالوث: ١٠
ما هو المقصود بتقديم جسده؟ ١٣
الدين المُستحَق على الجميع، والموت (تجسد الكلمة ٢٠: ٢) ١٤
الدَّين: ١٦
"قدَّم جسده للموت": في كتاب تجسد الكلمة ١٨
تمهيد ١٨
كيف يجب أن نفهم شرح القديس أثناسيوس؟ ٢٠
أولاً: الفصل العاشر من كتاب تجسد الكلمة: ٢٠
ثانياً: الفصل السادس عشر من كتاب تجسد الكلمة: ٢٣
ثالثاً: الفصل العشرون من كتاب تجسد الكلمة: ٢٥
الرب قابل الموت في هيكل جسده: ٢٦
رابعاً: الفصل الحادي والعشرون: تطبيق وممارسة: ٢٨
اتحاد اللاهوت بالناسوت هو قوة الصليب والقيامة: ٢٩
الحياة الإلهية للكلمة المتجسد أبادت الموت: ٣٠
"قدَّم جسده للموت": القديس أثناسيوس، وسقوط العصر الوسيط ٣٢
محكمة الحق أو (الحق هو القاضي) ٣٧

تقدمة الابن لجسده،
ذبيحة المحبة التي قدَّمها
الآب والابن والروح القدس على الصليب

التعليم الرسولي وتقسيمات العصر الوسيط

يجب أن نعود إلى صفاء ونقاء التعليم الرسولي الذي لم يمر بثقافة العصر الوسيط الأوربي، الذي تفرَّع إلى عدة اتجاهات مختلفة، بدأت بأنسلم، ثم وصلت إلى نموها الفلسفي على يد توما الإكويني، ودخلت لاهوت حركة الإصلاح الذي لم يبتعد بالمرة عن لاهوت العصر الوسيط، إلاَّ في موضوع الأسرار الكنسية ورئاسة بابا روما وسلطة الكتاب المقدس التي تعلو على التسليم الكنسي الروماني الذي عرفه قادة حركة الإصلاح مارتن لوثر ويوحنا كالفن.

وكان هدفهم من محاولة إعلاء سلطة الكتاب المقدس، وضع التسليم الكنسي في أضيق الحدود الممكنة حتى يتمكن هؤلاء القادة من التعامل مع بابا روما، ومن فرض تعليم موازٍ يستند إلى نصوص الكتاب المقدس وحده.

لذا كان من الضروري الاحتفاظ بتعليم عن تقديم ترضية للآب الغاضب على الإنسانية، والتعليم بمصالحة العدل الإلهي مع الرحمة. وكان من الضروري لكي تبقى هذه الفكرة سائدة أن يظل تقديم الابن لجسده على الصليب لله الآب، هو المبدأ السائد الذي لا يمكن التنازل عنه حتى تستقيم فكرة إرضاء العدل الإلهي بتقديم ترضية.

وهكذا تم حصار فعل "التقديم" نفسه في بذل الابن لجسده ودمه على عود الصليب، وهو ما يترك الإفخارستيا معزولة تماماً عن فعل التقديم نفسه، الأمر الذي يجد معه الباحث نفسه أمام عدة أسئلة ظهرت أثناء وبعد حركة الإصلاح:

* ما هي علاقة ذبيحة الرب يسوع على الصليب بما حدث قبل الصلب؟
* بل ما هي علاقة ذبيحة الرب بما يحدث ويُعطى في القداسات بعد القيامة والصعود؟

هذه الأسئلة، وغيرها كثير، فتحت المجال لعدة طرق تهدف قبل كل شيء إلى الدفاع عن موت الرب يسوع المحيي على الصليب، واعتباره محور الخلاص الوحيد، الأمر الذي أدى إلى عزل الإفخارستيا والقيامة والصعود عن الصليب. وتم ترحيل هذه الموضوعات إلى تقسيمات أخرى، فدخلت الإفخارستيا في قسم الأسرار، ودخلت القيامة والصعود في قسم الخريستولوجي، وتم الفصل تماماً بين أعمال الرب يسوع المسيح التي قُسِّمت إلى موضوعات متعددة.

– ١ –

عودة إلى التعليم الرسولي
كما شرحه القديس أثناسيوس

لكي نجيب على ما سبق من أسئلة باستقامة، أي بأرثوذكسية، نحتاج أولاً إلى النظرة الكلية الشاملة التي ترفض تقسيمات العصر الوسيط. وقبل أي خطاب عن تقديم الابن لجسده، يجب حصر الأفعال الخاصة بالصلب كما وردت في الأسفار المقدسة؛ لكي نستطيع قراءة التعليم الرسولي كما دوَّنه القديس أثناسيوس باستقامة.

لعل أشهر كلمات الوحي عن صلب المسيح له المجد هي في (يوحنا ٣: ١٦): "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى **بَذَلَ** ابْنَهُ الْوَحِيدَ".

والفعل اليوناني **بَذَلَ أو قَدَّمَ** δίδωμι له نفس معنى الفعل المستخدم بمعنى رفع، ويُرفع حسب كلمات الرب: "وَكَمَا **رَفَعَ** مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ **يُرْفَعَ** ابْنُ الإِنْسَانِ" (يوحنا ٣: ١٤)[١]. وهذا الفعل لا يختلف لغوياً عن الفعل المستخدم في نبوة أشعياء (٥٣: ١٢) παραδίδωμι ، أي رُفِعَ أو قُدِّم أو بَذَلَ.

وفعل الرفع هنا خاصٌ بالذبيحة، ولذلك حرصت الرسالة إلى العبرانيين على استخدام الفعل الليتورجي προσήνεγκεν "الْمَسِيحِ، الَّذِي بِرُوحٍ أَزَلِيٍّ **قَدَّمَ** نَفْسَهُ للهِ بِلاَ عَيْبٍ، يُطَهِّرُ ضَمَائِرَكُمْ .." (عب ٩: ١٣ – ١٤). ويأتي تأكيد الاستخدام الليتورجي من المقارنة بين ذبائح العهد القديم وذبيحة الرب نفسه في الكلمات السابقة

---

(١) اشتراك فعلين أو أكثر في التعبير عن عمل واحد هو أحد ملامح اللغة العبرانية التي دخلت لغة العهد الجديد اليونانية، ولذلك الفعل "يرفع" هو ذاته الفعل "يقدم" كعمل، رغم اختلاف الفعلين لغوياً. وفي أشعياء ٥٣: ١٢ حسب الترجمة اليونانية إن الرب دُفع، أو رُفع، أو صُلب هو المقصود باستخدام الفعل παραδίδωμι في مرقس ١٤: ١٠، لوقا ٢٣: ٢٥.

عن دم الثيران ... مع الأخذ في الاعتبار أن الرسالة إلى العبرانيين لم تحصر التقديم في الدم وحده، بل تخطت ذلك إلى ما هو أكثر، وهو تقديم "الذات"؛ لأن عمل المسيح أعظم من أن يقارن بذبائح العهد القديم؛ لأن الرب **قدَّم ذاته**، وهو هنا القربان ورئيس الكهنة في شخص واحد.

وحسب كلمات رومية (٣: ٢٤ – ٢٥) فقد أعلن الآبُ الكفَّارةَ – ويا ويل الذين عميت عيونهم عن سياق كلمات الرسول بولس الذي يقول: "الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ" (رو ٣: ٢٥)، وليس من أجل الحصول على ثمن، ولا حسب كلمات العلامة الكبير – الأنبا بيشوي –: "معلهش سامحهم علشان خاطري"[1]، وهي كلمات مبطنة بالتجديف على ابن الله.

لقد قُدِّمت الكفَّارة للصفح عن البشر الخطاة، لا لعقاب الابن، وهو ما يقدِّمه الرسول بعد ذلك عن المصالحة: "قَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ"، فبالأولى نخلص به (بالابن)، بل لاحظ: "فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُصَالَحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ"؛ لأننا بهذه الحياة نلنا المصالحة (راجع رو ٥: ٨ – ١١).

استحالة حصار العمل الإلهي في أقنوم واحد بعينه:

إذا كان الآب قد أرسل الابن (يوحنا ٣: ١٧)؛ ولاحظ: "لا لكي يَدِينَ الْعَالَمَ"، بل "لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ"، فهل يصح التعليم بأن الآب يحكم على الابن ويدينه، في الوقت الذي لا يدين فيه الآب العالم؟!!

وإذا كان الآب لا يدين أحداً، بل أعطى الدينونة كلها للابن (يو ٥: ٢١)، أفلا يقع أصحاب هذا التعليم في إنكار الخلاص بالابن من الدينونة؟

وإذا كان الآب لا يدين أحداً، فهل يمكن أن تحتمل عبارة: "لا يدين أحداً"

---

(١) راجع في ذلك محاضرة الأنبا بيشوي عن العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، محاضرة مسجلة على شريطي كاسيت، مؤتمر الحياة الكنسية ١٩٩٨، أسقفية الشباب. راجع أيضاً مناقشتنا تفصيلاً لهذا التعليم الهدام، كتابنا: موت المسيح على الصليب، ص ٣٩١ وما بعدها.

أي إمكانية لدينونة الآب للابن على الصليب؟

هذا حقاً مريع وفظيع.

وإذا كان الآب قد "أَعْطَاهُ سُلْطَانًا أَنْ يَدِينَ" (يوحنا ٥: ٢٧)، وفي (غلاطية ٤: ٤ – ٥) "أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُودًا مِنِ امْرَأَةٍ، مَوْلُودًا تَحْتَ النَّامُوسِ، لِيَفْتَدِيَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ"، فهل صار عمل "فداء" الذين تحت الناموس قاصراً على الابن وحده؟

* أرسل الآب ابنه ...

* فدى الابنُ الإنسانية،

– أليس هذا عمل واحد؟

* قدم ذاته بالروح الأزلي لله (عب ٩: ١٣).

هذا هو عمل الابن، ولكن أليس هذا هو ذاته عمل الآب (يوحنا ٣: ١٦ مع رو ٣: ٢٤ – ٢٥).

* وعندما يقول الرسول يوحنا إن: "يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ. وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَانَا. لَيْسَ لِخَطَايَانَا فَقَطْ، بَلْ لِخَطَايَا كُلِّ الْعَالَمِ أَيْضاً" (١يوحنا ٢: ٢)، فهل يبقى مجال لأي تعليم عصر أوسطي عن فداء الإنسانية من خطية آدم وحدها؟

إن حصر عمل الرب في فداء خطية آدم يضع موت الرب المحيي خارج حياتنا الشخصية، ويفقد كلام الرسول "وَدَمُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِهِ يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ" (١يوحنا ١: ٧)، كل قيمة.

* "يَرْفَعَ خَطَايَانَا" (١يوحنا ٣: ٥). ويلاحظ هنا أن ترجمة الفعل اليوناني المستخدم هنا إلى (يرفع) هي ترجمة عربية غير دقيقة؛ لأن الفعل هو αϊρειαύτό / remove - airein وقد استخدم الفعل في هذا المعنى في مَثَل الكرمة في (يوحنا ١٥: ٢) حيث **يزيل** الآبُ الأغصانَ غير النافعة أو التي بلا ثمر، وهو ذات الفعل المستخدم في نص يوحنا: "هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يوحنا ١: ٢٩).

" Ιδε ό άμνός τού Θεού ό αϊρων τήν άμαρτίαν τού κόσμυ".

فحمل الله هو الذي **يزيل** αϊρων – **يحمل بعيداً** – **يرفع من العلاقة**.

ولكن علينا أن نكون على حذر؛ لأن الرب يسوع يرفع الخطيـــة، لا لكـــي تضاف إلى كيانه أو أقنومه الإلهي؛ لأن يوحنا الرسول يشهد عنه أنه "لَيْسَ فِيه خَطِيَّةٌ" (١يوحنا ٣: ٥) وأن دمه "يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ" (١يوحنا ١: ٧).

ومرةً أخرى هل توجد كلمات أوضح من هذه الكلمات:

"تَعْلَمُونَ أَنَّ ذَاكَ أُظْهِرَ لِكَيْ يَرْفَعَ خَطَايَانَا، وَلَيْسَ فِيهِ خَطِيَّةٌ" (١ يو ٣: ٥).

فهل تدنَّس الابن له المجد عندما أزال الخطية ورفعها؟ فكيف إذن يمكننـــا أن نقول إن: "دمه يطهر من كل خطية"؟ كيف يُطهِّر إذا كان قد تدنس حسب التعلـــيم التجديفي الصادر عن جهل؟

لقد قال الرسول إن الرب دخل قدس الأقداس بدم نفسه (عـــب ٩: ١٢)، وعندما قدَّم ذاته "بِرُوحٍ أَزَلِيٍّ – ولاحظ قوة التعبير – لله بِلاَ عَيْبٍ، يُطَهِّرُ ضَـــمَائِرَكُمْ مِنْ أَعْمَال مَيِّتَةٍ لِتَخْدِمُوا اللهَ الْحَيَّ" (عب ٩: ١٤). وعندما يقول رسول الـــرب إن الرب فدانا "بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَل بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ" (١بطرس ١: ١٩)، فهو "لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ. الَّذِي إِذْ شُتِمَ لَمْ يَكُـــنْ يَشْـــتِمُ عِوَضًا، وَإِذْ تَأَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يُهَدِّدُ بَلْ كَانَ يُسَلِّمُ لِمَنْ يَقْضِي بِعَدْل".

وبعد كل هذه الصفات يقول رسول المسيح: "الَّذِي حَمَلَ هُوَ نَفْسُهُ خَطَايَانَا فِي جَسَدِهِ عَلَى الْخَشَبَةِ (الصليب)، لِكَيْ نَمُوتَ عَنِ الْخَطَايَا فَنَحْيَا لِلْبِرِّ" (١بـــط ٢: ٢٢ – ٢٤)، ولكن فقط تعلَّق عقل الساديين بعبارة الرســـول: "حمـــل خطايانـــا في جسده".

وهنا علينا أن نقدم كيف يشرح القديس كيرلس السكندري هذه الحقيقة:

> "يكتب بولس المبارك في مكان معين عندما يشرح أسباب تجسد ابن الله الوحيد الجنس إذ يقول: "كان الناموس عاجزاً لأنه كان ضعيفاً بسبب الجسد؛ لذلك أرسل الله ابنه في شبه جسد الخطية وبسبب الخطية، دان الخطية في الجسد لكي يتم حكم الناموس فينا (حكم الموت) نحن السالكين ليس حسب الجسد، بل حسب الروح" (رو ٨: ٣ – ٤ حسب الأصل اليوناني والقبطي). وأيضاً

في موضع آخر يقول: "بسبب شركة الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك في اللحم والدم، لكي يبيد الموت ذاك الذي له سلطان الموت ..." (عب ٢: ١٤ – ١٧)؛ لذلك نقول إن الطبيعة البشرية التي أصابها الفساد بسبب تعدي آدم، والفكر الذي فينا تسلطت عليه لذات الجسد أي حركاته المغروسة فينا، صار من الضروري – لأجل خلاصنا نحن الذين على الأرض – أن يتأنس كلمة الله لكي يجعل الجسد الإنساني الذي كان خاضعاً للفساد ومريضاً بحب اللذة أن يصبح جسده الخاص به، وحيث أنه هو الحياة، بل ومعطي الحياة، فإنه يبيد الفساد في الجسد، وينتهر حركاته المغروسة فينا، تلك الحركات التي تميل نحو حب اللذة. لأنه بهذا ماتت الخطية التي في الجسد.

وقد سبق وذكرنا أن المبارك بولس دعا هذه الحركة المغروسة فينا "ناموس الخطية" (رو ٧: ٢٥).

ولأن الجسد الإنساني هو جسد الكلمة الخاص به، لذلك توقف الخضوع للفساد؛ لأن الكلمة – كإله – لا يعرف الخطية (١بطرس ٢: ٢٢). وعندما اتحد بالجسد أعلنه جسده الخاص به – كما ذكرت – وبذلك وضع نهايةً لمرض حب اللذة. و لم يفعل كلمة الله الوحيد الجنس هذا لأجل ذاته – لأنه لا يحتاج، بل هو دائماً بلا احتياج – بل كما هو واضحٌ، فعل ذلك لأجلنا نحن. لأنه وإن كنا قد خضعنا للشرور من تعدي آدم، فإن ما عمله المسيح، أي عدم الفساد وإماتة الخطية تصل إلينا كلها".

(رسالة ٤٥: ٨ – ٩).

فكيف ومتى أباد الرب الخطية؟

لقد أباد عرش الخطية أي الموت، أو حسب تعبير القديس أثناسيوس نفســـه:

"أبطل الموت" (تجسد الكلمة ١٠: ١).

وأبطل الموت عند أثناسيوس تعني:

"أبطل فساد انحلال وحدة الكيان الإنساني،
وعودة الجسد إلى التراب الموت".

(تجسد الكلمة ٩: ٤).

بل بموته على الصليب – وعلينا أن نلاحظ دقة التعبير الليتورجي:

"بذبيحة جسده الخاص به أو الذاتي،
وضع نهايةً لقانون أو شريعة الموت".

(تجسد الكلمة ١٠: ٥).

تقديم الجسد هو عمل الثالوث:

يجب علينا أولاً وقبل أي شيء آخر أن نخلع جذر تعليم العصر الوسيط الذي وضع الله في "ورطة" و"مشكلة" تحتاج إلى الحل، وجعل من التجسد والصلب ضرورة. في حين أن ما نراه عبر صفحات كتاب تجسد الكلمة هو أن حركة المحبة وصلاح الله ومحبة الله للبشر كخالق، هي التي تجعله الله المخلص، ولهذا السبب عينه، كان جسده هو هيكل الكلمة، فيقول أثناسيوس:

"أخذ جسداً من جنسنا .. من عذراء طاهرة نقية لم تعرف رجلاً،
جسداً طاهراً وبدون زرع بشر".

(تجسد الكلمة ٨: ٣).

قد تبدو هذه الكلمات بلا معنى بالمرة، ولكن معناها يظهر في العبارة التالية:

"لأنه وهو الكائن الكلي القدرة وخالق كل شيء، أعد الجسد من
العذراء ليكون هيكلاً له وجعله جسده الذاتي .. ويظهر ذاته به".

(تجسد الكلمة ٨: ٣).

فقد جاء ليسكن في هيكله أي جسده ليقدم الذبيحة θυσία وهنا يجب أن ندقق في تعبير المعلم العظيم.

* "تقديم جسده الخاص" (١٠: ١)، والفعل اليوناني προσφέρω هو تقديم أو إحضار شخص إلى شخص آخر كما ورد في (متى ٤: ٢٤ – ٨: ١٦ – ٩: ٢ – ١٤: ٣٥) أو تقديم الأطفال للرب يسوع (مرقس ١٠: ١٣)، وهو أيضاً ذات الفعل الخاص بتقديم المال (متى ٢٢: ١٩)، أو محاولة سيمون الساحر تقديم المال للرسل لشراء موهبة الروح القدس (أع ٨: ١٨)، وهو نفس الفعل الخاص أيضاً بتقديم الذبائح "بِالإِيمَانِ قَدَّمَ هَابِيلُ لِلهِ ذَبِيحَةً أَفْضَلَ مِنْ قَايِينَ" (عب ١١: ٤ – راجع أيضاً تقدمة الأمم في ملاخي ١: ١١ و١٣).

واستخدم الفعل أيضاً في الكلام عن تقديم ذبائح العهد القديم: "وَكُلُّ كَاهِنٍ يَقُومُ كُلَّ يَوْمٍ يَخْدِمُ وَيُقَدِّمُ مِرَارًا كَثِيرَةً تِلْكَ الذَّبَائِحَ عَيْنَهَا ..." (عب ١٠: ١١).

* لكن من الضروري أن ننتبه إلى استخدام الفعل في تقديم الرب يسوع ذبيحته؛ لأن المسيح رئيس الكهنة القدوس الذي بلا شر (عب ٧: ٢٦) الذي هو "أعلى من السموات" في هذه المكانة السماوية العظمى للابن خالق كل الذبائح "لَيْسَ لَهُ اضْطِرَارٌ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ (في العهد القديم) أَنْ يُقَدِّمَ ذَبَائِحَ أَوَّلاً عَنْ خَطَايَا نَفْسِهِ[1] ثُمَّ عَنْ خَطَايَا الشَّعْبِ، لأَنَّهُ فَعَلَ هذَا مَرَّةً وَاحِدَةً، إِذْ قَدَّمَ نَفْسَهُ" (عب ٧: ٢٧).

* في (عب ٩: ٢٨) يجب ملاحظة صيغة الفعل: "هكَذَا الْمَسِيحُ أَيْضًا، بَعْدَمَا قُدِّمَ مَرَّةً لِكَيْ يَحْمِلَ / يرفع خَطَايَا كَثِيرِينَ ...". واستخدام الفعل الخاص بالذبيحة هو الشرح المسيحي لكلمات النبوة في (أش ٥٣: ١٢).

وقد وضع الشرح المسيحي هذا الفعل في إطاره الليتورجي، فهو لم "يُسلَّم" بواسطة أيدي الرومان واليهود، ولكنه تقدمة أو ذبيحة خطية.

* لكن يجب ملاحظة وصف إرادة الرب يسوع في كلمات القديس أثناسيوس بأنها الإرادة الحرة للكلمة الخالق:

---

(١) نحذر المعلمين الذين لم يدرسوا الكتاب المقدس ولا الآباء أنهم عندما يقولون إن المسيح صار خطيةً بالمعنى البروتستانتي السائد، فهم يقولون عن جهل إن المسيح نفسه احتاج لمن يقدم عنه ذبيحة. راجع مناقشتنا لهذا الشرح، والشرح الآبائي لهذه الآية كتابنا: موت المسيح على الصليب، ص ٦٦٩ وما بعدها.

"كلمة الآب كلي الصلاح،
لم يتخلَّ عن الجنس البشري الذي خُلِقَ بواسطته،
و لم يتركه ينحدر إلى الفناء،
بل أبطل الموت الذي حدث نتيجة التعدي
بتقديم جسده الخاص".

(تجسد الكلمة ١٠: ١).

* في الفصل السادس عشر يؤكد القديس أثناسيوس أن موت الرب كان "ذبيحةً"، وملاحظة الصياغة ذات أهمية قصوى: فقد شرح أولاً الطول والعرض والعمق والعلو لمحبة المسيح (أفسس ٣: ١٧ – ١٩)، هذه المحبة ليست قاصرة على الموت على الصليب، فهذا تعليم ناقص رغم ما فيه من صحة، ولكنه جاء لكي يعلن الآب ويعلن إلوهية أقنومه المتجسد، ولذلك:

"امتلأت كل الكائنات من معرفة الله بإعلان الكلمة عن ذاته
في كل مكان فوق وتحت، في العمق وفي العرض.
أما فوق، ففي الخليقة.
تحت، عندما تأنس.
في العمق، بنزوله إلى الجحيم.
في العرض، أي في كل المسكونة.
لقد امتلأ الكل من معرفة الله (أش ١١: ٩)

وبعد هذا الشرح يقول:

"لهذا السبب – أي من أجل إعلان المعرفة – فإنه لم يتمم ذبيحته عن الكل بمجرد مجيئه مباشرة، بتقديم جسده للموت ثم إقامته ثانية....
ولكنه صيَّر نفسه ظاهراً جداً بتلك الأعمال التي عملها وهو في

الجسد والمعجزات التي أظهرها،
وبذلك صار معروفاً أنه ليس بعدُ مجرد إنسان فقط،
بل أنه هو الله الكلمة".

(تجسد الكلمة ١٦: ١ – ٤).

ما هو المقصود بتقديم جسده؟

إذا درسنا فصل ٢٠ بعناية، وحسب ترتيب الشرح نفسه حتى لا نقع ضحايا لحصر التعليم في عبارة واحدة أو عبارتين فقط، فإن المعلم العظيم يقدم عمل الله الثالوث في الابن على هذا النحو:

* حوَّل الفاسد إلى عدم فساد؛ لأنه هو "الذي خلق منذ البدء كل شيء من العدم"، فهو يؤكد إلوهية الرب؛ لأن هذا التحول غير ممكن لمخلوق، بل هو ممكن لربنا "يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها" (٢٠: ١).

لكن علينا أن نلاحظ العبارة التالية؛ لأن موت الرب، وقبل ذلك تجسده هو تعليم عن الآب:

"ولم يكن ممكناً أن يُعلِّم البشر عن الآب ... إلاَّ الكلمة الذي
يضبط كل الأشياء، فهو وحده الابن الوحيد الحقيقي".

(تجسد الكلمة ٢٠: ١).

فالتحول هنا ليس عملاً ميكانيكياً، بل هو تحول بالمعرفة والشركة.

وإعلان الابن الكلمة عن الآب هو أحد أهداف التجسد التي تتكرر في تجسد الكلمة (راجع على سبيل المثال ١٥: ٧ وكيف ربط القديس أثناسيوس نعمة الصورة بمعرفة الآب كغاية من خلق الإنسان، وهو ما يشغل الفصل ١١ كله. راجع أيضاً ١٢: ١ – ١٦: ٢ بل كيف أن الخلق من العدم هو تعبير عن صلاح الله ١: ١ – ١: ٣ – ٣: ٣ – ٥: ٥ – ٥: ٦ – ٥: ١٠ – ١٠: ١ – ١١: ١ – ١١: ٣ – ١٢: ٣ – ٢٠: ٣).

-٢-

الدين المُستحَق على الجميع، والموت
(تجسد الكلمة ٢٠: ٢)

على الرغم من أننا شرحنا بكفاية في المحاضرات السابقة، وفي دراستنا عن موت الرب المحيي على الصليب[١] أن معلمنا - العظيم حقاً في بطاركة الإسكندرية - لا يُعلِّم بما عُرِفَ في مدارس اللاهوت في العصر الوسيط الأوروبي عن دفع الدين للآب، فهو لم يذكر ذلك بالمرة، بل يُعلم بما يختلف تماماً عن العصر الوسيط، بل أحياناً ضده تماماً، إلاَّ أننا هنا يجب أن نضع أمام القارئ الحقائق التاريخية التي صاغت الفكر اللاهوتي في العصر الوسيط:

أولاً: تغيير الإطار اللاهوتي الخاص بالتعليم عن الله نفسه، إذ صار الإمبراطور هو "ظل الله على الأرض" الذي يعرف العدل القانوني الذي ينتقم، لا عدل الله[٢] الذي يشفي ويجدد ولا يُسرُّ بموت الخاطئ (حزقيال ١٨: ٢٣) .. وعبارة النبي غريبة؛ لأن الخاطئ يحمل ذنبه، ومع ذلك، فالله لا يجد مسرةً في موت الخاطئ. وهكذا تحول الاهتمام من الثالوث كأساس للتعليم اللاهوتي إلى الاهتمام بإلوهية الابن وحده. مما جعل أساتذة اللاهوت وبدعوة من مجلس كنائس بريطانيا وايرلندا يصدرون دراسةً بعنوان:

The Forgotten Trinity, 1989.

سبقها دراسة عن الثالوث للعالم الكاثوليكي الأب اليسوعي

K. Rahner, The Trinity, 19

---

(١) منشور على موقع الدراسات القبطية: www.coptology.com

(٢) نشير هنا إلى دراسة د. هاني مينا: العدالة الإلهية، حياة لا موت، مغفرة لا عقوبة. وهي دراسته الشخصية التي جاءت موازية متناغمة مع تجسد الكلمة ودراستنا عن موت المسيح على الصليب.

وذلك لأن الكسل كان قد غمر العقول و"استسهل" المفكرون الشرح اللاهوتي البسيط مثلما يحدث في أيامنا هذه. ومع ذلك فلم يترك الله نفسه بلا شاهد إذ قدم العصر الوسيط أعظم الكتب عن الثالوث، ففي الغرب قدم ريكاردوس الفكتوريني Richard of St. Victor كتابه عن الثالوث (انتقل في عام ١١٧٣ ونُشرت الطبعة النقدية للجزء الثالث فقط من كتاب الثالوث[١].

وفي الشرق شرح الأسقف غريغوريوس أسقف قبرص الثالوث بشكل موسع، ويُعد من أفضل الكتب التي لم تُنشر بعد كاملة، ولا زال هذا الكتاب في حاجة إلى طبعة نقدية، وإن كانت قد وصلتنا بعض شذرات من هذا الكتاب في بعض محاضرات الأسقف كاليستوس وير Ware الذي وَعَدَنا بطبعةٍ كاملةٍ، إذ لا زال النص اليوناني في ثلاث مخطوطات يونانية لم تنشر بعد تعود إلى القرن الثالث عشر.

وفي مصر كانت مخطوطة الأب صفرونيوس "الثالوث توحيد وشركة وحياة"[٢]، مع بعض الرسائل الأخرى، تؤكد تراجع الحياة الروحية من الشركة إلى حياة عزلة الفرد وليس حتى عزلة الشخص[٣].

ثانياً: اختفاء التعليم العام عن الروح القدس في العصر الوسيط، ويُعد القرن العشرين هو عصر العودة إلى اكتشاف عمل الروح القدس لا سيما بعد انفجار الحركات الكارزمية[٤].

ومع أن الشرق احتفظ باستدعاء الروح القدس في كل الصلوات الليتورجية، إلاَّ أنه حتى في الشرق البيزنطي، بعد انتقال سمعان اللاهوتي الجديد ومن بعده غريغوريوس بالاماس، لم يصلنا كتابٌ جيدٌ عن الروح القدس، ما عدا الشذرات التي وردت في الفيلوكاليا، والتي لم تكن معروفة في مصر إلى أن صدر كتاب "العنصرة" للأب متى المسكين، ثم "الروح القدس في حياة الناس"، وغيره من دراسات ومقالات.

---

(١) Classics of Western Spirituality, 1979.

(٢) تم نشر هذا النص على موقع الدراسات القبطية www.coptology.com

(٣) راجع مقدمة كتاب "الوجود شركة" للأسقف يوحنا زيزيولاس – الطبعة الأولى – تعريب د. جورج حبيب بباوي – القاهرة.

(٤) Killian McDonnell. The Other Hand of God, 2003.

ولعل غياب الخطاب اللاهوتي الخاص بالروح القدس هو الذي حصر ما صار يعرف عند الأنبا شنودة الثالث والأنبا بيشوي مطران دمياط باسم عقيدة الكفارة والفداء، في موت الرب يسوع المسيح على الصليب وفي إرضاء العدل الإلهي ودفع الثمن .... الخ وبذلك غاب عمل الروح القدس الذي كوَّن جسد الابن الوحيد، وهو ذات الجسد الذي قُدَّم ذبيحةً عن العالم كله، بل وصل الأمر بالأنبا شنودة الثالث إلى إحياء تعليم يوحنا كالفن عن الفداء المحدود؛ لأن الرب مات عن المؤمنين فقط، وليس عن كل العالم. وبذلك كان يجب على القديس يوحنا الرسول أن يكتب الإنجيل بطريقة أخرى ويقول: هكذا أحب الله المؤمنين حتى بذل ابنه الوحيد .. ولكن رسول الرب قال: "هكذا أحب الله العالم" (يوحنا ٣: ١٦).

الدَّين:

الدين هو استحقاق الموت، وهو فقدان وتبديد الصورة الإلهية. إذ يقول القديس أثناسيوس:

"ولما كان من الواجب وفاء الدين المستحق على الجميع،
إذ كما بينا سابقاً،
كان الجميع مستحقين الموت،
فلأجل ذلك الغرض جاء المسيح بيننا".

(تجسد الكلمة ٢٠: ٢).

على أن القديس أثناسيوس لم يتوقف عند ذلك، بل يؤكد إلوهية الرب، وهذه الإلوهية لا نرى لها دوراً فعالاً في لاهوت العصر الوسيط في تحرير الإنسان ورده إلى الحياة.

وحتى الإدعاء بأن خطية الإنسان غير محدودة، وأنها كانت تستدعي فديةً أو ترضيةً غير محدودة، لا يعطي إلوهية الرب أي عمل حقيقي فعال سوى أن تكون الفدية مجرد تسديد غرامة أو دفع دين، بينما في الفصل الخاص بالدين يؤكد القديس أثناسيوس:

"بعدما قدم براهيناً كثيرة على إلوهيته بواسطة أعماله،
فإنه في الجسد قدَّم ذبيحة عن الجميع".
(تجسد الكلمة ٢٠: ٢).

فقد أعلن إلوهيته وبقوة هذا اللاهوت:

"قدم ذبيحته عن الجميع ...
أسلم هيكله للموت عن الجميع".
(تجسد الكلمة ٢٠: ٢).

وبعد ذلك يكشف المعلم عن معنى ما تقدم:

"أولاً: لكي يبررهم من المعصية الأولى.
ثانياً: لكي يثبت انه أقوى من الموت،
مظهراً جسده الخاص أنه عديم الفساد،
وأنه باكورة القيامة للجميع".
(تجسد الكلمة الفقرة ٢ كلها).

وعندما سلَّم المخلص جسده للموت عن الجميع، وليس عن المؤمنين فقـــط، برر كل البشر من المعصية الأولى[١].

(١) المعصية الأولى، أو الخطية الجدية، أو الخطية القديمة هي الأسماء الشائعة في الشرق، أما الخطية الأصلية كاسم، فلم يظهر في كتابات آباء الكنيسة الجامعة قبل القديس أوغسطينوس. راجع في ذلك:
Augustine Through the Ages, Allan D. Fitgerald, 1999,p 88ff.
ومن الجدير بالذكر أن الأنبا بيشوي حاول إعادة ترجمة النص على أنه الخطية الأصلية وفشلت كل محاولاته.

-٣-

"قدَّم جسده للموت":
في كتـــاب تجســـد الكلمـــة

تمهيد

أولاً: إن الخلاص بكل ما تشمله هذه الكلمة من معاني له أساس واحد، هو أنه عمل الله الخالق؛ لأن الخالق وحده هو القادر كخالق على تجديد الخليقة.

ثانياً: إن الله الخالق ليس لديه ضرورة أو مسئولية أدبية أخلاقية لكي يجـــدد الخليقة، ولكن الدافع والمحرك الأساسي هو الصلاح الإلهي الذي جاء بالخليقة من العدم إلى الوجود .. فالمحبة الخاصة للبشر التي جعلت الابن يتجسد.

في هذا الإطار اللاهوتي الأصيل الذي يجد أساسه في الأسفار المقدسة، لا يمكن فصل الخلق عن التجسد، وهو ما تجود به افتتاحية إنجيل يوحنا الذي يبـــدأ بالكلمـــة الخالق لكي يصل إلى تجسد الكلمة، وهو نفس منهج الإصحاح الأول في كـــل مـــن العبرانيين والرسالة إلى كولوسي.

فالفرق الجوهري بين الجود أو الصلاح والمحبة الإلهية، والالتزام أو المســـئولية الأدبية الأخلاقية كبير. فالمسئولية الأدبية الأخلاقية مشـــيَّدة علـــى شـــريعة الثـــواب والعقاب، وشريعة الثواب والعقاب أصلها أو جذرها هو الخير والشر، أمَّـــا الجـــود والصلاح ومحبة البشر، فهي قوى أقانيم الثالوث التي تُوصف عادةً بأنها "طبيعـــة". وفي الثالوث لا توجد طبيعة تكون الأقانيم، فهذا قاصرٌ على البشر، ولكـــن في الثـــالوث تكون الأقانيم والطبيعة واحد، فلا يوجد في طبيعة الآب ما يميزه عن طبيعة الابن، بل التمايز محفوظ للأقانيم. هذه ليست معضلة بالمرة؛ لأن الطبيعة الواحدة هـــي الاســـم الفلسفي لكلمة الوحي "الحياة الواحدة"، ولكن اخـــتلاط المصـــطلحات الفلســـفية

بالمفردات اللاهوتية أدى إلى فوضى فكرية سوف نتناولها بالتفصيل في المحاضرة العاشرة. لكن يكفي الآن أن نفهم أن الجوهر = الطبيعة، وكلاهما من الكلمات الفلسفية اليونانية التي تترجم إلى كلمة "حياة" العبرانية، والتي وردت بوفرة في إنجيل يوحنا. فـ "حياة واحدة"، حسب الوحي = "جوهر واحد" حسب ما تطوَّر في اللاهوت، وبسبب الصراع ضد مدارس الفلسفة اليونانية القديمة التي استندت عليها الهرطقات القديمة مثل الغنوسية والأريوسية.

فإذا كانت طبيعة أو جوهر أو حياة الثالوث هي الصلاح والمحبة، تعذَّر علينا أن نرى أن ما يعمله الله الثالوث من خلق وفداء أو خلاص، مرتبٌ حسب متطلبات ضرورة أو شريعة أدبية أو أخلاقية. لم يكن خلق العالم ضرورة وُضِعَت على الله، بل فيضُ صلاحٍ، وكذلك خلاص العالم هو فيضُ صلاحٍ ومحبة، فلم يكن التجسد حلاً لمشكلة اسمها الخطية، بل إعلانٌ عن المحبة، ورد الوجود والكيان الإنساني إلى أعظم ما يمكن أن يصل إليه الإنسان بواسطة الله، وهو البنوة، وأن يتضمن هذا غفراناً وتجديداً للكيان الإنساني.

هنا تختلف الطرق: طريق الله المعلن في الأسفار والذي شرحه الآباء، وهو مبني على تعليم الرسل – وطريق العصر الوسيط الذي مزج بين اللاهوت والفلسفة والقانون والثقافة وحاول شرح الإيمان على أساس فلسفي قانوني واستخدم القانون الوضعي: العقاب – العدل – إرضاء الله ... الخ لكي يشرح موت المسيح المحيي، وركَّز الانتباه على الموت على الصليب، وترك التجسد الذي هو أساس الصليب، والقيامة التي جعلت التجسد أبدياً وعملاً لا ينتهي بل يدوم إلى الأبد.

هنا أيضاً يجب أن نلاحظ أن بعضاً من العظام من معلمي الكنيسة الجامعة مثل العظيم أوريجينوس – غريغوريوس النيصي – أوغسطينوس ... هؤلاء مزجوا اللاهوت بالثقافة السائدة، ولذلك يجب مراعاة فصل وتمييز الفكر المعاصر لهؤلاء الآباء وعزله عن الشرح العام السائد في الكنيسة الجامعة، لا سيما ذلك الشرح المُودع في الليتورجيات، وهي قلب الكنيسة النابض بحياة الشركة مع الله، والشركة في الثالوث.

كيف يجب أن نفهم شرح القديس أثناسيوس؟

"قدَّم جسده للموت كذبيحة" ورد في الفصول (١٠ – ١٦ – ٢٠ – ٢١) وفي الرد على الأريوسيين (١: ٥٩ – ٢: ٩).

أولاً: ما لم يذكره القديس أثناسيوس لا بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر.

١– قدم ذبيحة لإرضاء العدل الإلهي.

٢– قدم ذبيحة كدفع ثمن للخطايا.

٣– قدم ذبيحة لكي يصرف الغضب الإلهي.

وردت هذه العناصر الثلاثة بوفرة عند كالفن وأتباعه، وسجَّلها كتاب علم اللاهوت النظري الذي طبعته الكنيسة الإنجيلية في مصر. هذه العناصر بالذات غائبة تماماً من العهد الجديد برمته، ومن كتابات الكنيسة الشرقية في الألف سنة الأولى.

ثانياً: ما ذكره القديس أثناسيوس، وهو ما يختلف تماماً عن تعليم العصر الوسيط:

١– الفدية ليست ثمناً، بل عملاً إلهياً حرر به الابن الإنسانية من الموت والفساد. وهو المعنى الغالب في العهد الجديد والقديم أيضاً.

٢– الدين المستحق على الإنسانية هو فقدان الصورة الإلهية التي أضاعها الإنسان بالخطية. والعجيب حقاً أن كل شرح لِما يسمى بعقيدة الفداء صمت عن موضوع الصورة الإلهية، ولم يذكر هؤلاء الشُّراح شيئاً عن طبيعة الإنسان ومكانته في الكون حسب مزمور ٨. مَن الذي أخطأ؟ وكيف أصابت الخطية الكيان الإنساني نفسه وشوَّهت الصورة الإلهية؟ فهذا التشويه هو أساس الصلاح والشفاء والتجديد الذي جاء به الله الكلمة المتجسد.

بعد عرض ما لم يقله أثناسيوس، وما أكد عليه، نترك المعلم العظيم حقاً ليشرح لنا ماذا يقصد بتقديم الكلمة المتجسد جسده للموت.

أولاً: الفصل العاشر من كتاب تجسد الكلمة:

١– "إن هذا العمل العظيم هو لائق بدرجة فائقة بصلاح الله" (١٠: ١).

هكذا يقدِّم شرحاً لتقديم الذبيحة: صلاح الله الفائق، والمثال على ذلك هو:

"إذا أسس ملكٌ منزلاً أو مدينةً، ثم بسبب إهمال سكانها،
حاربها اللصوص، فإنه لا يهملها قط،
بل ينتقم من اللصوص ويخلصها لأنها صنعة يديه،
وهو غير ناظر إلى إهمال سكانها،
بل إلى ما يليق به هو ذاته".

(تجسد الكلمة ١٠: ١).

هكذا يعود المعلم الكبير إلى الخلق على صورة الله، وإلى صلاح الله الـــذي لا يجعل الله يهمل الخليقة، وما حدث من سطو اللصوص (الشياطين) لا يمكن تركه، بل يجب إصلاحه.

وجديرٌ بالذكر أن هذه هي المرة الوحيدة التي استخدم فيها القديس أثناسيوس فعل "ينتقم"، وهو استعمال خاص باللصوص، فلم ينتقم الآب من الابن، و لم يذبحـــه لكي يهدأ غضبه كما يقول الأنبا شنودة، بل كما يقول أثناسيوس نفسه: "الذي قُتِـــلَ هو الشيطان.... الوحيد الذي يبقى حقاً ميتاً هو الشيطان" (٢٧: ٣) وهـــو الحيـــة القديمة "مدوسةً تحت الأقدام ... ماتت وفقدت قوتها" (٢٩: ٥).

٢- ويكمل القديس أثناسيوس شرحه:

"كلمة الآب كلي الصلاح، لم يتخلَ عن الجنس البشري،
الذي خلق بواسطته، و لم يتركه ينحدر إلى الفناء،
بل أبطل الموت الذي حدث نتيجة التعدي،
بتقديم جسده الخاص (الذاتي)".

(تجسد الكلمة ١٠: ١).

هكذا يؤكد أثناسيوس أن الصلاح هو حركة وعمل الله.

٣- أمَّا عن ضرورة التجسد، فإن التعليم يختلف عن العصر الوسيط تمامـــاً، وهو حسب كلمات المعلم نفسه عن محبة المسيح التي جعلت الواحد يموت عن الجميع (٢كو ٥: ١٤ - ١٥). فما هو سبب هذه الضرورة؟ ونحن نقدم هنا النص كـــاملاً

حسب سياق الشرح نفسه ودون حذف أو إضافة:

"السبب الذي من أجله كان ضرورياً أن الله الكلمة نفسه، وليس آخر سواه هو الذي يتجسد، فيقول (بولس الرسول): "لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد أن يُكمَّل رئيس خلاصهم بالآلام" (عب ٢: ١٠).

وهو بهذا يقصد (بولس الرسول) أن يوضح أنه لم يكن أحدٌ آخر يستطيع أن يسترد البشر من الفساد الذي حدث (نتيجة السقوط) غير كلمة الله الذي خلقهم من البداية".

(تجسد الكلمة ١٠: ٢ – ٣).

ويجب أن نلاحظ أن الضرورة هنا هي ما يليق بصلاح الله وقدرة الخـــالق الله الكلمة على أن **يسترد البشر من الفساد**.

يؤكد ذلك ما يقوله المعلم نفسه في الفقرة التالية:

"وأيضاً أشار الرسول إلى أن الكلمة بذاته اتخذ لنفسه جسداً ليقدمه ذبيحةً عن الأجساد المماثلة قائلاً: إذ تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً فيهما لكي يبيد بالموت ذلك الذي له سلطان الموت ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية" (عب ٢: ١٤ – ١٥)".

(تجسد الكلمة ١٠: ٤)

فالذبيحة أبطلت الموت وأبادت الموت.

٤– وبعد ذلك، يقول:

"لأنه بذبيحة جسده الذاتي وضع **نهاية لناموس الموت الذي كان قائماً ضدنا**".

(تجسد الكلمة ١٠: ٥).

وعندما توقف ناموس الموت يتابع المعلم العظيم سرد ماذا حدث حقاً، ولكنه لا يذكر الجانب السلبي، بل:

أ– صنع لنا بدايةً جديدةً للحياة برجاء القيامة الذي أعطاه لنا.

ب– بإنسانٍ واحدٍ ساد الموت على البشر، ولهذا السبب تأنس كلمة الله، ولذلك تمت إبادة الموت وتمت قيامة الحياة.

ج– نحن الآن لا نموت بعد كمدانين، بل كأناسٍ يقومون من الموت ننتظر القيامة العامة[١] التي أتمها الله، والتي وهبنا إياها" (تجسد الكلمة ١٠: ٥).

ثم يختم قائلاً:

"هذا إذن هو السبب الأول لتجسد المخلص".

(تجسد الكلمة ١٠: ٦).

إن ما ورد في **أ**، **ب**، **ج** هو كلمات القديس أثناسيوس نفسه، وليست كلماتي، ولكن جرؤ الأنبا شنودة الثالث على أن ينسب إليَّ عبارات القديس أثناسيوس حتى يمكنه أن يكتب ضدها، دون أن يعلن للقارئ أنه يكتب ضد أثناسيوس نفسه.

ثانياً: الفصل السادس عشر من كتاب تجسد الكلمة:

١– يؤكد القديس أثناسيوس أولاً إلوهية الكلمة، وأنه ليس مجرد إنسان، ثم يقتبس كلمات الرسول عن طول، وعرض، وعمق، وعلو محبة المسيح الفائقة المعرفة (أف ٣: ١٧ – ١٩)، ويشرح القديس أثناسيوس كلمات الرسول: "لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله"، مؤكداً أن الامتلاء هو من معرفة الله، فيقول: "فقد امتلأت كل الأشياء من معرفة الله بإعلان الكلمة نفسه في كل مكان" (١٦: ٣) لأن إعلان الكلمة هو أحد أسباب تجسد الكلمة (راجع ١٦: ٤).

---

(١) القيامة العامة في التراث الإسلامي هي عمل عام يقوم به الله في اليوم الأخير، ولذلك فالاعتراف بيوم النشور، أو يوم القيامة هو ركن أساسي في التعليم الإسلامي. أما القيامة العامة في التسليم الرسولي كما عبَّر عنه أثناسيوس، فهي قيامة الطبيعة الإنسانية، وبالتالي قيامة جميع البشر التي تمت أولاً بقيامة المسيح يسوع ربنا، فهي عمل إلهي معلن وقد تم في المسيح، ولا توجد قيامة عامة بدون قيامة المسيح؛ لأن المسيح "أقامنا فيه" (راجع كولوسي ٣: ١)، بل نحن كنا "أمواتاً بالخطايا، أحيانا مع المسيح" (أفسس ٢: ٤). فالحياة التي نحياها ليست منا، ولا هي صادرة منا، بل من المسيح، ولذلك يقول الرسول: "المسيح يحيا فيَّ". فهو لا يحيا حياةً مستقلةً ذاتيةً بدون المسيح (غلا ٢: ٢٠). وقد سلمتنا الكنيسة هذه الحقيقة في أوشية الإنجيل: "لأنك أنت حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا". وعندما تغيب هذه الحقيقة عن عدة عظات متتابعة في عيد القيامة، يكون التنويه مطلوباً.

وهذه هي أبعاد الإعلان الإلهي حسب شرح أثناسيوس نفسه:

"أمَّا فوق، ففي الخليقة.

وتحت، عندما صار إنساناً.

وفي العمق، بنزوله إلى الجحيم.

وفي العرض، أي في كل المسكونة.

لقد امتلأ الكل من معرفة الله".

(تجسد الكلمة ١٦: ٣).

٢- بعد تأكيد الإعلان الإلهي يؤكد القديس أثناسيوس أنه كان على الكلمة المتجسد أن يعلن ذاته بالأعمال التي عملها في الجسد، فيقول:

"إنه (الرب يسوع) لم يتمم ذبيحته عن الكل بمجرد مجيئه مباشرةً بتقديم جسده للموت ثم إقامته... ولكنه صيَّر نفسه ظاهراً جداً بالأعمال التي عملها وهو في الجسد".

(تجسد الكلمة ١٦: ٤).

٣- ثم يفترق التعليم الرسولي الآبائي كما يشرحه القديس أثناسيوس عن تعليم العصر الوسيط، فيقول:

"لأن المخلص تمم بتأنُّسه بطريقتين محبته للبشر: أباد الموت من داخلنا وجددنا ثانيةً.

ولأنه وهو غير ظاهر ولا منظور، فقد جعل ذاته معروفاً بأعماله في الجسد، وأنه كلمة الآب مدبر وملك الكون".

(تجسد الكلمة ١٦: ٥).

الطريقة الأولى: ثابت في محبته للبشر، وهي إبادة الموت وتجديد الكيان الإنسان من الداخل.

الطريقة الثانية: الإعلان عن الكلمة كملك للكون. ومُلْك الكون هو استرداد الخليقة، واقتناء الخليقة من جديد، وتحرير الخليقة من الموت، وهو الخطوة الأولى التي مهَّدت لسيادة الملك المسيح.

ثالثاً: الفصل العشرون من كتاب تجسد الكلمة:

إذا كان الفصل السادس عشر هو الفصل الذي أكَّد محبة الكلمة للبشر وتجديد واسترداد الخليقة لكي يملك عليها الرب يسوع، فإن الفصل العشرون هو فصلٌ يجمع فيه القديس أثناسيوس ما سبق وشرحه؛ لكي يضيف ويوضح ما يحتاج إلى الإضافة والوضوح. إنه الأسلوب الدائري السكندري Circular الذي يبدأ بدائرة صغيرة تعقبها دائرة أكبر تضم أكثر حتى تكتمل الدائرة، ولذلك تبدو هذه العبارة في الفقرة الأولى مثيرة للانتباه: "لقد تحدثنا (شرحنا) إذن وباختصار على قدر المستطاع .. عن سبب ظهوره في الجسد"، وهي النقطة التي بدأ المعلم بها من جديد؛ لكي تتسع الدائرة، مؤكداً ما سبق وأن ذكره في الفصول السابقة:

"لم يكن ممكناً أن يحول الفاسد إلى عدم فساد إلاَّ المخلص نفسه". ومرة ثانية هذا هو عمل الخالق "الذي خلق منذ البدء كل شيء من العدم" لأن الخلق من العدم وهو ما ورد في بداية شرح الإيمان في الرسالة إلى الوثنيين وبعدها في تجسد الكلمة (١: ٤ — ٣: ١ – ٢). فالآب هو الخالق بالكلمة كل الأشياء، ولذلك فعمل الخالق هو: "تجديد الخليقة تم بواسطة الكلمة خالق الخليقة، وبه "تمم الآبُ خلاص العالم" (١: ٤).

ويعود القديس أثناسيوس إلى موضوع الصورة الإلهية الذي سبق وعرضناه من قبل، وهكذا تتسع الدائرة لموضوع تجديد الإنسان:

> "لم يكن ممكناً أن يعيد خلق البشر ليكونوا على صورة الله إلاَّ الذي هو **صورة الآب**. ولم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها".
>
> (تجسد الكلمة ٥: ١).

هذه الفقرة المختصرة، غنية وأشهى من العسل، وهي تلخص لاهوت الإسكندرية كله:

* الإنسان صورة الله المخلوق حسب صورة الآب.
* الكلمة هو صورة الآب، وهو لذلك – حسب صلواتنا – "الشريك

الأقنومي أو الذاتي مع الآب"، الذي له صفات الآب.

وعندما رفضنا في إصرار – حتى سفك الدم – عقاب الآب لابنه الوحيد، فقد كان أساس هذا الرفض هو شركة الابن في كل صفات الآب ما عدا الصفة الأقنومية الخاصة بالآب وحده، والتي لا تفصل الآب عن الابن؛ لأن ولادة الابن من الآب نابعة من صفة الآب الأقنومية، وبالتالي لا تسمح هذه الشركة التي تعلو على الوصف، بالانقسام ولا بالفصل.

* إعادة الخلق هو العمل الإلهي لأقنوم الكلمة الذي لا يمكن حصره في موت الرب المحيي وحده.

* إن رد الحياة للإنسان المائت لا يتم بكلمة ولا بالتعليم، ولكن بمن هو "الحياة ذاتها".

ثم بعد ذلك تتسع الدائرة لكي تضم الإعلان عن الآب، والقضاء على العبادة الوثنية (تجسد الكلمة ٢٠: ١).

ولا ينسى القديس أثناسيوس "دين الموت" (تجسد الكلمة٢٠: ٢). **فقد رد الدين بواسطة إبادة الموت نفسه؛ لأن استحقاق الموت بسبب السقوط لا يمكن أن يُعالج إلاَّ بالحياة.**

وفي المقالة الأولى في الرد على الأريوسيين يقول – في مجال المقارنة بين الرب والملائكة – إن الملائكة هم عبيد، وإن الرب أفضل وأعظم من الملائكة؛

> "لأن العبيد كانوا مكلفين ومطالبين بتقديم الثمار فقط وليس أكثر (متى ٢١: ٣٤) أمَّا الابن والسيد، فكان من حقه أن يصفح عن **ديونهم**، وأن يسلِّم الكرم إلى آخرين".
>
> (فقرة ٥٩ راجع الترجمة العربية – الطبعة الثالثة، ص ١٣٦ – مركز دراسات الآباء بالقاهرة).

الرب قابل الموت في هيكل جسده:

قدَّم الربُ ذبيحته "عن الجميع"، فأسلم هيكله للموت. وعندما نتابع شرح

المعلم لطبيعة الذبيحة، نجد أنه قد حدد هذا الموضوع تحديداً مضاداً لتعليم العصر الوسيط:

أولاً: جسد الكلمة قابل للموت، لأنه جاء لكي يبيد الموت (٢٠: ٤).

ثانياً: ذلك الجسد قابل للموت؛ لأنه مثل كل "أجساد البشر" (٢٠: ٤)، وكان لابد أن يموت مثل باقي البشر" (٢٠: ٤).

لكن هنا يفترق التعليم:

أ– بفضل اتحاده بالكلمة لم يعد خاضعاً للفساد حسب طبيعته (٢٠: ٤).

ب– "بل بسبب كلمة الله الذي حلَّ فيه فإن الفساد لم يلحق به" (٢٠: ٤).

وماذا يعني هذا بكل دقة ممكنة؟

إنه يعني أن الموت عجز عن أن يمس الناسوت، بل لقد قابله الرب في هيكله وأباده، وهو ما سبق وأشرنا إليه عدة مرات. ولذلك فقد تم فعلان كلاهما معاً في وقت واحد Simultaneously :

> "الأول هو أن موت الجميع قد تم في جسد الرب.
>
> والثاني هو أن الموت والفساد **قد أبيدا** من الجسد بفضل اتحاد الكلمة به".
>
> (تجسد الكلمة ٢٠: ٥).

الفعلان كلاهما معاً في اتجاهين مضادين، **ولذلك لم يخضع الكلمة المتجسد للموت**.

وهذه الفقرة تعتبر ترجمة لاهوتية للقديس أثناسيوس لبشارة الرسول بطرس في يوم العنصرة: "اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضًا أَوْجَاعَ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ" (أع ٢: ٢٤). فقد عجز الموت أن يُبقِ الرب تحت سلطانه وقوته، ولذلك يوصف الرب في أناشيد الكنيسة الشرقية القديمة بأنه "الرب هازم الموت والجحيم".

وإذا كان الرب قد وفَّى الدين بأن أباد الموت، فالفعل هنا ليس "الدفع" بالمعنى التجاري، بل وفاء الدين، أي الموت. فقد تم حكم الموت الذي سبق الله وأنذر آدم به "يوم تأكل موتاً تموت" (تكوين ٢: ١٧). ولعل خاتمة الفصل تكفي لأن الدائرة قد

شملت كل شيء حسب ترتيب شرح القديس أثناسيوس نفسه:

١– الكلمة غير مائت.

٢– أخذ جسداً قابلاً للموت.

٣– لكي يقدمه عن الجميع.

٤– حتى إذا ما تألم عن الكل باتحاده بالجسد.

٥– يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس.

(تجسد الكلمة ٢٠: ٥).

رابعاً: الفصل الحادي والعشرون: تطبيق وممارسة:

"الآن إذ قد مات مخلص الجميع عنا" (٢١: ١)، ماذا يحدث لنا؟

"نحن الذين نؤمن بالمسيح لن نموت الموت السابق حسب وَعِيد الناموس؛ لأن هذا الحكم قد أبطل".

(تجسد الكلمة ٢١: ١).

لقد تغيَّرت طبيعة الموت بفضل موت الرب على الصليب؛ "لأن الحكم قد أُبطل"، بل يضيف القديس أثناسيوس عبارة هامة: "وبما أن الفساد قد أُبطل وأُبيد بنعمة القيامة"، هذا التحول لا يظهر الآن بشكل واضح، بل منذ أن صُلب الرب وقام من الموت "فإننا من ذلك الوقت، وبحسب طبيعة أجسادنا المائتة تنحل في الوقت الذي يحدده الله لكل واحد منا" هذا الانحلال ليس هو النهاية، بل حتى يمكن أن ننال قيامةً أفضل". (تجسد الكلمة ٢١: ١).

ويقدِّم القديس أثناسيوس تشبيهاً، وهو "البذور"، فهي "لا تفنى"، بل "تُزرع في الأرض".

لكن على أية حال لا يجب أن نفقد قوة التعليم بأن "الموت قد أبيد بنعمة قيامة المخلص" (تجسد الكلمة ٢١: ٢).

اتحاد اللاهوت بالناسوت هو قوة الصليب والقيامة:

الرب يسوع هو "قوة الله وكلمة الله، وهو الحياة ذاتها" (٢١: ٣)، لذلك السبب "فقد قام الجسد لأنه جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها" (٢١: ٧). الفساد قد أُبيد من الجسد بفضل اتحاد الكلمة به" (٢٠: ٥). وهذه العبارة تغيب تماماً من تعليم العصر الوسيط ومن تعليم الأنبا شنودة والأنبا بيشوي وغيرهما.

ما الذي أباد الموت؟ ليس هو قبول الموت. لا يوجد أسخف من هذه الفكرة. قبول الموت لا يؤدي بالمرة إلى نهايته وإبادته، بل حتى ولا يفرز القيامة.

لقد انحط الفكر العصر الأوسطي، وجعل الصراع صراعاً بين قوى متعارضة، بينما الصراع هو صراع شخص الكلمة المتجسد مع "الفساد"، مع الموت ليس كقوة، بل كـ "حكمٍ" يحمل نهاية الحياة، حكم هو القضاء على الحياة؛ وذلك لأن الحياة الإنسانية ليست خالدة ولا هي عديمة الموت، لأن الذي له الخلود وحده هو الله" (١تيمو ٦: ١٣)، وهو وحده الذي لا يموت؛ لأنه:

١- واجب الوجود، يملك حياته.

٢- غير مخلوق، أي لم يحصل على حياته من آخر.

٣- غير خاضع لأية قوة أو شريعة (قانون)، بل هو "كيانٌ حر".

وعندما يأتي الكلمة المتجسد إلى الموت وهو الحياة ذاتها، فهو يُخضع جسده للحكم. يقبل نهاية الحياة الجسدانية، بل والنزول إلى الجحيم أيضاً. هذا قبولٌ مصدره الأول والأخير "محبته للبشر"، لكن القبول الإرادي الحر - حسب كلمات التقوى الأرثوذكسية، "صُلب بإرادته" أو "مات طوعاً" - لا يلاشي الموت، إلاَّ أن القديس أثناسيوس لا يتركنا نضرب في بيداء التخمين، بل يحيلنا على دور الإرادة الإلهية للإله المتجسد، والذي حدده هكذا: "قَبِلَ في ذلك الجسد، ذلك الموت الذي أتاه من البشر؛ لكي يبيد ذلك الموت تماماً عندما يلتقي به في جسده" (٢٢: ٣). بل في دقة يقول: "لقد تعقب الربُ الموتَ حتى يقضي عليه" (٢٢: ١)، بل ما هو أكثر من ذلك "أنتظر الموت أن يأتيه ليبيده" (٢٢: ٢)، فالمسيح هو "المصارع النبيل، العظيم في المهارة والشجاعة .. لم يختر لجسده موتاً معيناً، ... فالموت الذي قبله واحتمله على الصليب

قد أوقعه عليه آخرون" (٢٤: ٣)، ولكن لأن المسيح هو "الحياة"، فبه "تتم إبادة سلطان الموت كلية" (٤٤: ٣).

* لم يكن الموت مصدره ضعف الكلمة. هذه فكرة أريوسية تتسلل من الباب الخلفي – على حد تعبير أستاذنا د. وهيب عطا الله – لأن الموت قد أُبيد "بقوة المخلص" (٢٦: ٦).

* لقد هزم المخلصُ الموتَ "وشهَّر به على الصليب" (٢٧: ٤)، ولذلك السبب يردد الذين يؤمنون بالمسيح: "أين غلبتك يا موت؟ أين ذَنَبُكِ يا هاوية؟" (٢٧: ٤ راجع حاشية د. جوزيف فلتس ص ٧٨).

* لقد أفقد المسيح الموت كل قوته (٢٩: ١ – ٢٩: ٦)، بل لقد "وطأه بجسده" (٣٠: ٢)، ولذلك "أمات الموت" (٣٠: ٢٢)، لكنه بعد أن "مات كجسد عاد إلى الحياة بسبب الحياة التي فيه" (٣١: ٤).

الحياة الإلهية للكلمة المتجسد أبادت الموت:

الخطر الشديد الذي نتج عن تعليم العصر الوسيط هو احتدام صراع القوى والمحتويات العقلية Mental Concepts في رأس الإنسان.

أمَّا التعليم الرسولي، فهو شخص وأقنوم الكلمة المتجسد الذي قَبِلَ حكم الموت في جسده قبول الكلمة "المهيمن على الكون، ... والذي يعطي الكل النور والحياة والوجود" (٤١: ٤).

لقد سكن الكلمة في الجسد لكي يُعلن عن نفسه (راجع ف ٤٢: ٥). وبالرغم من وجود الكلمة في الكون بقدرته الذاتية، إلاَّ أن له وجوداً خاصاً حقيقياً هو الوجود المتجسد الذي أراد به أن يعلن عن ذاته في الجسد وعن الآب (٤٢: ٦).

ومع أننا شرحنا فصل ٤٤ من كتاب تجسد الكلمة، إلاَّ أننا نحتاج إلى العودة إليه مرةً ثانيةً، وربما ثالثةً ورابعةً:

١ – لقد أخذ الكلمة المتجسد جسداً قابلاً للموت؛ لأن الفساد والموت صار ملتصقاً في الجسد" (راجع ف ٤٤: ٥ و٧)، فقد صار الموت داخل نسيج الجسد

(٤٤: ٥).

والموت الذي صار من نسيج الكيان الإنساني لا يعالج بمجرد موت الرب على الصليب، وهنا يتم التبادل – إذا جاز التعبير – "لبس الجسدُ الحياةَ بدل الموت، فطرح عنه الفساد" (٤٤: ٥).

في التجسد تم الإتحاد، لذا "كان من الصواب أن يلبس المخلص جسداً لكي إذا اتحد الجسدُ بالحياة **لا يبقى بعد في الموت كمائت**، بل إذ قد لبس عدم الموت، فإنه يقوم ويظل غير مائت" (٤٤: ٦).

يجب أن ننتبه إلى هذه الكلمات: "البقاء في الموت"؛ لأنها صدى ما حدث لآدم بعد السقوط، فما حدث له لم يكن موتاً، بل "البقاء في فساد الموت إلى الأبد" (٣: ٥). وكما ذكرنا من قبل إن محبة الله وحدها هي التي لم تسمح للإنسان بأن يعود إلى العدم. وهكذا يجب أن نفهم أن إبادة الموت تَمَّت:

بقوة الحياة،

بإلوهية الكلمة الخالق،

باتحاد الحياة بجسد قابل للموت.

لقد تم هذا التحول لكي ينال الإنسان القيامة، إذ لا يكفي إبادة الموت، فقد كان الكلمة قادراً على أن يبعد الموت عن الجسد بالقوة، أو حسب عبارة معلمنا العظيم "بمجرد إصدار أمر من الكلمة" (٤٤: ٨)، لكن قابلية الجسد للموت كانت ستبقى، لذا كان من الضروري أن يحدث التحول، فقد "لبس الحياة كثوبٍ، وهكذا أُبيد منه الفساد الذي كان فيه" (راجع ف ٤٤: ٨).

لقد قدَّس الكلمة الجسد وأعطاه حياةً (راجع ف ٤٥: ١ – ١٧: ٥).

– ٤ –

"قدَّم جسده للموت":
القديس أثناسيوس، وسقوط العصر الوسيط

في هذه العجالة القصيرة يجب أن نتوقف أمام أهم نقاط الاختلاف.

أمامنا – بشكل خاص – ثلاث قنوات يتدفق منها تعليم العصر الوسيط: أنسلم أسقف كانتربري – الأنبا شنودة الثالث – الأنبا بيشوي مطران دمياط، بالإضافة إلى ما يطفو على سطح الثقافة المعاصرة في مصر.

عن أنسلم أخذ الغربُ فكرة تقديم الترضية، ثم طوَّر العصر الوسيط الأوربي، وعلى يد قادة حركة الإصلاح، ليس فقط تقديم الترضية، بل "احتمال العقوبة" – "غضب الآب".

ومن العصر الوسيط بالذات جاءت الأفكار الشائعة: "دفع الثمن" – "غفران مدفوع الثمن" – "عذاب المسيح على الصليب"، و"الدم هو الثمن"، وكل هذا وُضِعَ في "كبسولة واحدة" هي "البديل العقابي".

وغني عن الذكر أن سقطات العصر الوسيط تبدو ظاهرةٌ بشكل لا يمكن تجاهله لمن – حتى – يدرس الكتاب المقدس وحده. فقد ضاعت حتى الكلمات الخالدة مثل: "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، .." (يوحنا ٣: ١٦). وضاعت رسالة المحبة الإلهية، ودُفنت تحت رمال الغضب والعدل الإلهي الذي حدده العصر الوسيط على أساس قانوني روماني قديم، لا على أساس الوحي، أي العدل الشافي والمخلص في سفر المزامير وغيره من الأسفار.

فقد سقط العصر الوسيط – دون أن يعرف – في أريوسية جديدة؛ لأن تعليمه يعني أن الابن ليس مساوياً للآب، ولا هو من ذات الجوهر، ولا هو حتى صورة الآب (راجع على سبيل المثال: "الابن هو صورة الآب" (تجسد الكلمة ١١: ٣ –

١٣: ٩ – ٢٠: ١).

بالطبع، لا يوجد إنكارٌ ظاهرٌ، بل هو إنكارٌ مصدره الحقيقي الفهم الخاطئ لخدمة المصالحة (٢كو ٥: ١٧ وبعده) التي قدَّمها الرب بحريته. والآب لا يستطيع أن يعاقب ابنه لأنه لا يمكن للآب أن يعاقب "صورته"، أي الابن.

هذا يحدث فقط على مستوى البشر المرضى عقلياً، أو أسرى العادات الاجتماعية الفاسدة البالية، مثل تلك التي نطق بها اللاهوتي الأوحد في الكنيسة القبطية، عندما تجاسر ووضع على لسان وفم الرب يسوع هذه الكلمات: "سامحهم علشان خاطري". أو أن الجلدات الحارقة التي نزلت على جسد الرب هي التي أعطت لنيافة المطران الغفران. النقطة الحاسمة هنا هي فقدان مساواة الابن للآب. فهي الباب الذي دخلت منه كل هذه الأفكار الخرافية السابقة التي لا وجود لها إلا في عقول أصحابها وقائليها. فلم يجلد الآبُ الابنَ؛ لأن كلمة "القصاص" وهي الكلمة يحب الأنبا بيشوي استخدامها دائماً – لأسباب معروفة – كلمة قرآنية لا وجود لها في العهدين، سبق أن نقلها الأنبا شنودة الثالث، وعنه أخذها مطران دمياط.

وسقط العصر الوسيط فيما يُعرف بدفع الثمن، وترك تحوُّل وتجديد الإنسان لحركة التجديد الإنجيلية في القرن الثامن عشر، التي جاءت بأن الإيمان هو يجدد الإنسان، وأن تسليم الحياة للمسيح يحل محل المعمودية، وأن الولادة الثانية هي التوبة ... إلخ.

فقد نقلت هذه الحركة كل أعمال الثالوث إلى الإنسان نفسه، وتحول الإنسان إلى مخلص لنفسه، يخلص فعلاً بالأعمال الصالحة، وبالرغم من تأكيد التعليم بالتبرير بالإيمان بدون أعمال وبنعمة الله، إلاَّ أن الواقع نفسه يكشف عن زيف التعليم الذي جاءت به هذه الحركة؛ لأن الإنسان هو الذي يتحرك نحو الله مدفوعاً بالفكر وبالشعور، دون أن يكون لديه أي تعليم عن الإتحاد بالمسيح.

وطبعاً في ظل غياب كل تعليم عن السرائر، لا سيما أسرار الانضمام إلى الكنيسة جسد المسيح (المعمودية – المسحة – الإفخارستيا) يقف الإنسان وحده وليس معه إلاَّ الذاكرة والفكر ... الحائل الحقيقي هو أن كل شيء تم يوم الجمعة، يوم

الصلبوت، وما على الإنسان إلاَّ أن يرى عقلياً ويصدِّق، وبذلك اختفى البعد المستيكي Mystical وهو اتحاد الإنسان بالمسيح يسوع ربنا الذي جاء إلينا ومعه الحياة الجديدة غالبة الموت.

وسقط العصر الوسيط – عن جهل – في تجاهل أهم ما يميِّز الإنسان، وهو "الصورة الإلهية"؛ لأن الآب خلق الإنسان وأعطاه نصيباً في صورته الذاتية، الكلمة ربنا يسوع المسيح[١]، هذه العلاقة الكيانية هي أحد أسباب تجسد الكلمة ابن الله.

لم يتطوع الابن؛ لأن دفع الثمن كان منوطاً به، بل لأن العلاقة الكيانية هي أساس الخلاص ورد الإنسان إلى ما كان عليه قبل السقوط. لقد تجسد الابن لأن الابن هو خالق الكون وهو واهب عطية الصورة، وهو تجسُّد الصورة الذاتية للآب، فهو لا يختلف عن الآب في الجوهر وهو ما جعله قادراً على أن يعلن الآب بواسطة تجسده؛ "لأن البشر يمكنهم أن يصلوا إلى معرفة الآب عندما يرون صورة الآب" (تجسد الكلمة ١١: ٣). وإصرار القديس أثناسيوس على أن الابن له المجد هو صورة الآب (١٣: ٩ وغيرها) هو تأكيدٌ، ليس فقط على وحدة الآب والابن، بل على أن التجسد هو إعلان حقيقي عن الله، ومعرفة حقيقية بالله الحقيقي، تلك المعرفة التي شُوِّهت بسبب السقوط، ولكن لم نعد نسمع في مصادر العصر الوسيط الإصرار على أن الابن هو صورة الآب، وأن التجسد هو إعلانٌ عن الآب، بل غابت أبوة الله الآب من كتب اللاهوت حتى عادت من جديد في مطلع هذا القرن (راجع مقدمة هذه المحاضرة).

لماذا تجسَّد الابن؟

هذا هو السؤال الذي سأله أنسلم، وأجاب عليه إجابة مختلفة عن إجابة القديس أثناسيوس[٢] ومن مزيج من أنسلم + تعليم العصر الوسيط + كتاب علم اللاهوت للكنيسة الإنجيلية + محاضرات الأب أوجين دي بليس، يخرج علينا الذين لم

---

(١) راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس، ومحاضرتنا الثالثة في سلسلة هذه المحاضرات عن الصورة الإلهية.

(٢) راجع دراستنا بعنوان القديس أثناسيوس في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي، منشورة على موقع الدراسات القبطية www.coptology.com

يدرسوا كتاب تجسد الكلمة بالقول بأن الابن تجسد لأن خطية الإنسان غير محدودة، مع أن المأساة هي في تشوُّه الصورة. وأن الابن تجسد لأن الله احتاج إلى فدية غير محدودة، مع أن التعليم الآبائي هو أن الله أراد أن يعيد خلق الإنسان من جديد، وهو ما سبق وأشرنا إليه من قبل، وأن التحول المطلوب هو أن يعرف البشر الآب الحقيقي (١٥: ٧ – ١٦: ٥)، وأن المطلوب أيضاً إعادة الكيان الإنساني إلى حياة عدم الموت في شركة في كيان الكلمة، وهو ما يعني إعادة خلق الإنسان (٢٠: ١) وتحوله من الفساد إلى عدم الفساد، وهو الموضوع الذي شغل الفصول (٢٠، ٢١، ٤٤، ٤٥).

لقد تجسد الكلمة؛ لأنه خالق الإنسان. والابن هو الذي يرد الإنسان إلى رتبة البنوة، فقد كان في استطاعة الآب أن يتجسد، ولكن تجسد الآب يعلن أبوة الله، وهي لا تعطى إلاَّ عن طريق الابن، لذلك كان الابنُ هو الجدير بأن يتجسد لكي يرد الإنسان إلى التبني، وبه يصل الإنسان إلى الآب.

ما غاب من كتاب تجسد الكلمة، واستقر في أدبيات العصر الوسيط:

١- تصور الصراع الإلهي بين العدل والرحمة في ميمر العبد المملوك، أو حاجة الآب إلى ترضية عند أنسلم، أو دفع الثمن للآب بواسطة الابن. هذه كلها غابت عن كتاب تجسد الكلمة؛ لأنها تفتقر إلى الأساس اللاهوتي الذي بني عليه شرح القديس أثناسيوس، وهو وحدة جوهر الثالوث ومساواة الأقانيم.

٢- الغضب الإلهي على الإنسان غائب تماماً، ولا أثر له، بل العكس هو ما نراه، وهو عكس ما هو سائد في العصر الحديث في أدبيات ووعظ بعض الإكليروس (الأرثوذكس).

ما غاب من أدبيات العصر الوسيط واستقر في كتاب تجسد الكلمة:

١- إن صلاح الله هو الذي أعطى نعمة الخلق من العدم، وأضاف نعمة الصورة (١: ١ – ١: ٣ – ٣: ٣ – ٥: ٥ – ٥: ٦ – ٥: ١٠ – ١٠: ١ – ١١: ١ – ١١: ٣ – ١٢: ٦ – ٢٠: ٣).

٢- إن صلاح الله هو الذي جعل الله ينتقم من اللصوص الذين سطوا على الخليقة، لا من الخليقة ذاتها (١٠: ١).

٣- إن صلاح الله هو ذات الصلاح الذي جعل من استحقاق دين الموت، فداء الإنسان وليس الانتقام من الإنسان، أو من الابن كلمة الله الآب.

لقد غاب عن التربية الكنسية المعاصرة أن الانتقام والعقوبة والقصاص لا تنشئ الغفران ولا التجديد.

٤- محبة البشر، وهي المحبة التي صيغ منها لقب الابن له المجد، أي "محب البشر"، وهي تلك المحبة التي تتغنى بها الكنيسة المصرية في كل صلواتها والتي يعلِّم بعض القادة في الجيل المعاصر ضدها في محاولة فاشلة لتأكيد سلطان كهنوتي لا يعرف الشفاء بالتعليم، بل يعرف كيف يثبت وجوده بالانتقام.

ماذا يقول معلمنا الكبير عن محبة البشر؟

"تحنن على الجنس البشري .. أعطاه نعمة ..
شركة في قوة كلمته".

(تجسد الكلمة ٣: ٣).

"نزوله إلينا كان بسببنا وإن تعدينا استدعى تعطف الكلمة....
تجسد لكي يخلصنا وبسبب محبته للبشر قبل أن يتأنس".

(تجسد الكلمة ٤: ٢ - ٣).

"رحم جنسنا وأشفق على ضعفنا وتراءف على فسادنا،
وإذ لم يحتمل أن يرى الموت وقد صارت له سيادة علينا لئلا تفنى الخليقة ..".

(تجسد الكلمة ٨: ٢).

"بذل جسده للموت عن الجميع وقدمه للآب، كل هذا فعله من أجل محبته للبشر".

(تجسد الكلمة ٨: ٤).

"كلمة الآب كلي الصلاح، لم يتخل عن الجنس البشري الذي خلقه"[١].

(تجسد الكلمة ١٠: ١).

"عظم صلاح الله ومحبته للبشر".

(تجسد الكلمة ١٢: ٦).

وفي الفصل السادس عشر يشرح المعلم العظيم الطول – العرض – العمق – العلو لمحبة المسيح، ويختم الفصل بأنه تتم عمليتين للمحبة إبادة الموت من داخلنا والإعلان عن الآب (١٦: ٥)؛ لأنه "الرب المعتني بالجميع" (١٨: ٦).

٥- إن الصليب هو انتصار المحبة، وهو انتصارٌ على الموت والفساد، وليس سحقاً وضرباً وقتلاً للابن، وتشفي الآب الغاضب. فقد صار الصليب علامة الغلبة (٢٧: ١)؛ لأن الموت نفسه قد مات (٢٧: ١)، ولذلك يخاف الشيطان من علامة الصليب (٢٧: ٣ – ٢٩: ٥)؛ لأنها علامة **موته وضياع سلطانه**، فقد هزم الموت على الصليب (٢٧: ٤).

محكمة الحق أو (الحق هو القاضي)

العنوان أخذ من الفقرة الأولى من الفصل التاسع والعشرين:

"الموت يُداس بالإيمان بالمسيح، وبعلامة الصليب، فلابد أن يكون واضحاً أمام محكمة الحق، انه ليس أحدٌ آخر سوى المسيح نفسه له الغلبة والنصرة على الموت".

في محكمة الحق[٢]، قضى الحق بحكم واحدٍ، هو أن نخبةً تركت الطريق الكتابي الآبائي ورغبت في طريق العصر الوسيط؛ لأنه يتفق مع ميولها وتطلعاتها حيث القوة

---

(١) تعد هذه العبارة صدى لعبارة القداس الباسيلي: "لم تتركنا عنك إلى الانقضاء (حتى النهاية)".

(٢) يقصد القديس أثناسيوس بهذا التعبير أنه أمام المحكمة لا بُد وأن تعطي دليلاً أو برهاناً على صدق ما تقول، ونحن هنا قدمنا كل البراهين على التعليم الرسولي من الكتاب المقدس وكتابات الآباء، وأن هذه البراهين هي ذاتها كانت الأدلة المقدمة منا على زيف تعليم العصر الوسيط، ومن يتبنونها من الإكليروس القبطي المعاصر.

ليست للمحبة، بل هي انتقام. والحق هو القتل المعنوي. والعدل هو اختراع تهمٍ باطلةٍ لا وجود لها.

لذلك، يبدو أن كل من سار مع القديس أثناسيوس لا بُد وأن يجني ثمار محاولات القتل، ولو مرتين على الأقل. مرة على أيدي الأريوسيين، ومرةً أخرى العزل والطرد والنفي ٥ مرات، بل وطلب الحماية من كنيسة الغرب.

دكتور
جورج حبيب بباوي